المثقف العربي
بين واقع الاستشراق وحلم الاستغراب

بقلم د/البخـــــاري
حمانـــــة

واقـــــع الاستشـراق

لا يـــزال المـــثقف العـــربي و الإسلامي ، على حد سواء ، مستقطبين مثل أسلافهما ، خاصة في القرنين الماضيين ، بظاهرة الاستشراق .

ذلك مـــا تؤكده على أي حال العديد من الكتابات والملتقيات العربية والإسلامية الـــتي لا تزال تخصص، ومنذ بداية القرن المنصرم ، على وجـــه التحديد وإلى اليوم ، لهده الظاهرة ، والتي لا نعتقد أن ملتقانا هدا سيكون آخرها .

وإذا كـــان الـــبعض قد قول أن مثل هدا الإستقطاب أمر طبعي، فالغرب الأوربي يستقطبنا اليوم بثقافته وعلومه وحضارته مثلما استقطبناه بالأمس، بثقافتنا وبعلومنا وبحضـــارتنا.. ونحـــن نتتلمد عليه اليوم بالتالي مثلما تتلمد علينا بالأمس، فإن هذا صحيح مبدئيا.. ولكن الحقيقة تظل في النهاية أبعد من ذلك.

فالغـــرب تتلمذ علينا بالأمس فعلا.. ولكنه سرعان ما تجاوزنا وتجاوز ثقافتنا وعلومنا وحضارتنا ليحولنا في أقل من ثلاث قرون ، لا إلى تلاميذ نجباء مثلما كان، بل إلى تابعين له و لكل إنجازاته الثقافية والعلمية والحضارية والاقتصادية - والسياسية ....الخ .

ولأن الاستشراق ليس في النهاية سوى واحد من بين إفرازات عديدة أخرى، أكبر وأخطر ، لتلمذتنا تلك على الغرب الأوربي ، فانه قد امتد بالتالي ، ومنذ تلك التـــلمذة ، في الذات .. وفي العقلية العربية والإسلامية امتدادا جعله لا يتمظهر أو يـــتحدد في الـــنهاية من خلال تلك الذات إلا لكي يرسخ فيها، وعلى وقع تقدمه العـــلمي المذهل ، تلك الصورة التي نجح في رسمها لها .. والتي تدينها .. ولكنها لا تستطيع إنكار الكثير من ملامحها ، صورة حولتها بالتالي إلى أسيرة لهذا الاستشراق والى عاشقة له في الوقت ذاته[1].

بذلـــك تحول الغرب لدينا إلى نموذج نمقته ونمقت نزعته العدائية الاستعلائية التمركزية[2]، ولكننا نعجب به وبإنجازاته العلمية والتقنية ، في نفس الوقت، نموذج مـــتحرك ومتجدد باستمرار.. تجددا لا يوهمنا أننا قد أمسكنا، أخيرا به ، إلا لكي يكشف لنا أنه قد أصبح منا أكثر بعدا ..

وبذلـــك أيضـــا تحولت كل مقاربة عربية و إسلامية للغرب الأوربي عامة ، وللاستشـــراق خاصـــة ، وهو الذي يعنينا هنا ، إلى مقاربة معكوسة للذات ، ذاتنا الباحـــثة عن تأكيد نفسها ، وسط تمزقها ذاك بين هاجس الأصالة .. والتحديات المتعددة والمتجددة لتلك الحداثة الأوربية الغربية .

وبذلـــك أخـــيرا ، انقلب كل جدل حول الاستشراق إلى جدل حول ذاتنا العربية الإسلامية المعاصرة داخل أسوار ذلك الاستشراق .. والتائهة وسط مفاهيمه و طروحاته ومناهجه وأهدافه ...

مـــن هنا سرّ ذلك التخبط الذي لا تزال تعرفه الدراسات العربية والإسلامية للإستشراق.

ومـــن هـــنا كذلك تلك السجالات حوله .. وحول تعريفه ، أو مفهومه، ومضمونه .. و أهدافه .

1 _ تعريف الاستشراق :

فعـــلى مستوى التعريف لا يزال الاستشراق يبحث ، نتيجة لتماهيمه ذاك مـــع الـــذات العربـــية والإســـلامية، عن تعريف يلتقي عنده كل الباحثين العرب والمسلمين على اختلاف منطلقاتهم الإيديولوجية ...

و لأن كـــل تعريف إنما هو تحديد ، ولأن التحديد لا يكون إلا في الزمان والمكان ، فإن الاستشراق ، باعتباره من جهة أقرب إلى المصطلح (الفولكلوري) منه إلى المصـــطلح العلمي[3]، وباعتباره من جهة أخرى ، وليد عوامل متعددة ومختلفة زمانـــا ومكانـــا ، فـــإن كـــل محاولـــة لتعريفه .. تتحول بالتالي إلى ضرب من العبـــث..وذلـــك نظـــرا لتماهيمه ذاك مع الذات العربية والإسلامية ، و هو الـــتماهي الـــذي لا يجعله يتحدد أمامها كموضوع .. إلا لكي يبرز في نفس الوقت كذات مرتبطة و متظهرة بها ومن خلالها[3].

إن هـــذا التداخل هو الذي يفسر ، إلى حد كبير ، فشل المثقفين العرب والمسلمين في الاتفاق على تعريف للاستشراق.

فبين تعريف الإسلامي محمد البهي ، وغيره من الإسلاميين ، للاستشراق ، الذي يطابق بينه وبين الاستعمـــار والتبشير[4]، و حصر الليبرالي إدوارد سعيد له في "تدريـــس الشـــرق.. أو في الكتابة عنـــه .. أو البحث فيه "[5]، والماركسي صـــادق جلال العظم الذي لم ير فيه سوى نتاجا للبرجوازية الأوربية في العصر الحديـــث[6]، يظل الاستشراق ، وهو المتعدد في مفهومه ومضمونـــه و أهدافه ،

تعـــدد وتـــنوع مـــراحله التاريخـــية وأمكنته الجغرافية ، يبحث عن مثل ذلك التعريف .. الذي يلتقي عنده كل أولئك المثقفين العرب والمسلمين .

ولأن الاستشراق لم يكن ، تاريخيا أو جغرافيا ، واحدا فإننا نقول أنه إذا كان صحيحا أن جزءا كبيرا منه ومن ممثليه قد وجد ، خاصة منذ الحروب الصليبية ، إن لم يكن قبلها بكثير ، في الاستعمار الأوربي المباشر ، أو غير المباشر ، للعديد من الأقطار العربية و الإسلامية ، دعما قويا بقدر ما وجد هذا الأخير كذلك دعما قويا من طرف مثل ذلك الاستشراق وأولئك المستشرقين ، فإن ذلك لا يجب أن يعني أن كـــل الاستشراق كان مدعما للاستعمار[7].

وفرنســـا قبل عصر النهضة الأوربية ،و الذي لا علاقة له تذكر ، تماما مثل الاستشراق الذي يعرفه اليوم العالم العربي والإسلامي ، بالاستعمار أو بالتبني ، بل نذكـــر كذلك بمواقف العديد من المستشرقين الذين ناهضوا بالأمس، وبشجاعة ، الاستعمار في شكله القديم ، و يعارضونه اليوم في يكفي أن نذكر هنا ، لا فقط ، بالاستشـــراق الذي عرفته الأندلس العربية الإسلامية و إيطاليـــا شكله الجديد وهي المناهضة التي وصلت بالبعض منهم لا إلى تبني قضايا العالم العربي والإسلامي فحســـب ، بـــل إلى اعتـــناق ديـــنه و إلى التمجيد العلني لرسوله (صلى الله عليه و سلم) [8].. ولكل رموزه الأخرى.

كمـــا أن الاستشـــراق ليس مجرد تدريس للشرق ، أو مجرد الكتابة عنه أو البحـــث فـــيه ، فضـــلا عـــن أن يكون مثل ذلك التدريس و البحث حكرا على البرجوازية الأوروبية دون غيرها من الطبقات الاجتماعية الأوروبية الأخرى[9]، بل إنـــه كذلـــك وفي الوقت ذاته " الكشف من طرف المثقفين الأوروبيين عامة الذين اتخـــذوا الشـــرق (بمعـــنى العالم العربي و الإسلامي ، مشرقه و مغربه) ، كنموذج

لدراســـاتهم تلك ، عن مظاهر الحضارة الإسلامية وعن التراث العربي الإسلامي ، وذلـــك من خلال البحث عن النصوص المفقودة و جمعها و تحقيقها، ومن خلال ترمـــيم المعـــالم الأثـــرية المندثرة و إعادة بنائها .. وصولا إلى إخضاعها للدراسة المقارنـــة وإلى الـــتعريف بـــهـــا عالمـــيا بعـــد ذلك كجزء لا يتجزأ من التراث الإنساني "[10].

2- مضمون الاستشراق :

و عـــلى مســـتوى المضمون فإنه إذا كان المفكر الإسلامي أنور الجندي قد حصـــر ، مثل محمد البهي وغيره من الإسلاميين ، مضمون الاستشراق في التهجم على الإسلام و على نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- وذلك من خلال التحريف و الافـــتراء و الكـــذب على الإسلام و على نبيه[11]، و إذا كان الليبرالي د. علي ســـامي النشار قد وجد في ذلك المضمون توطيدا لانتصار الغرب المنهزم .. وهزيمة الإسلام المنتصر[12]، فإن الماركسي د. طيب تيزيني قد اعتبره نتاجا للقصور المعرفي الـــنظري للمركزية الأوربية (l'eurocentrisme) الغربية القائم على تضخيم أهمية حضـــارة الغـــرب عـــلى حساب الحضارات الأخرى وعلى رفض المفهوم العلمي الاجتماعي لوحدة الثقافة الإنسانية بالتالي[13].

إن مـــثل هـــذه الأحكـــام الإطلاقية على مضمون الاستشراق حين تضع هذا المضمون في سلسلة واحدة ، دونما صراعات تذكر لاختلاف الأزمنة و الأمكنة، لا تلتقي ، عن وعي أو عن غير وعي ، مع طروحات دعاة التقاطع الكلي بين الشرق و الغـــرب (كيبليـــنغ ت 1936 r kipling) .. ،إلا لكي تقصر ، عمليا ، دراسة الإســـلام وحضـــارته على المسلمين فقط دون غيرهم ... و هي الدراسة التي نعلم

مـــدى هشاشـــتها و ضعف وزنها العلمي والعالمي بالنسبة للدراسات الاستشراقية لنفس المواضيع .

لذلـــك فإن مثل هذه الأحكام الإطلاقية لتؤكد بالتالي ، ودون أن تدرك، تلك التهم الباطلة ضد الإسلام وضد عدم قابليته للدراسة الموضوعية ، نتيجة لطبيعته المـــنغلقة على ذاتها ، بل إنها تقفز كذلك فوق واحد من أهم شعارات الإسلام ... وهـــو ذلك المنادي بضرورة الحوار مع الآخر ممثلا في كل أبناء الإنسانية أيا كانت عقيدتهم أو جنسيتهم و دون أي أحكام مسبقة .

3- أهداف الاستشراق :

و لأن ذلـــك هـــو ، في نظر أولئك المثقفين العرب و المسلمين ، الاستشراق تعـــريفا و مضـــمونا ، فإن أهدافه لا يمكن أن تكون بالتالي سوى " السيطرة على الشـــعوب العربـــية و الإســـلامية و الازدراء بها في المجالات الدولية"[14]. فمعرفة الاستشراق والمستشرقين للإسلام و لحضارته و تراثه إنما تهدف أساسا لتفتيته ولعزله عـــن التاريخ[15]. و ذلك من خلال تغطيته"[16]، و لتمرير و توطيد المصالح الحيوية للـــبرجوازية الأوربـــية داخـــل العالم العربي و الإسلامي ؟! وذلك عن طريق تلك التغطية المعرفية و عن طريق المسح الأنثروبولوجي كمقدمة لذلك[17].

إن مـــثل هذه الأحكام الجديدة – القديمة على أهداف الاستشراق إذا كانت لا تعـــبر، وكما سبق أن أشرنا، إلا عن جزء من هذا الأخير ، وليس عن كله[18]، فإنهـــا تؤكد ، في المقابل ، كل الجمود الذي تعيشه الذات العربية الإسلامية نتيجة لقصورها المعرفي المخزن أمام حركية و إبداعية أولئك المستشرقين.

وآيـــة ذلـــك أننا إن كنا أول من يسلم أن الاستشراق الذي لم يكن كله ، وكما سبق أن أشرنا ، واحدا في مفهومه و في مضمونه ، لا يمكن أن يكون بالتالي واحدا في أهدافه .

ذلـــك مـــا يؤكده على أي حال تقسيم البعض من الباحثين العرب اليوم ، للاستشـــراق إلى استشـــراق تقلـــيدي ..وجامد في أطروحاته و في أهدافه ..وإلى استشراق جديد في أسلحته ..وفي مضمونه وفي أهدافه[19].

صـــحيح أن هـــذا الاستشـــراق الجديد لم يتجاوز كثيرا النظرة الاستعلائية المركـــزية الأوربية التي ميزت الاستشراق القديم ، ولكنه أصح منه كذلك أن مثل تلـــك الـــنظرة لا يجب البحث عنها في الاستشراق وحده ، بل يجب البحث عنها كذلك ، وفي الوقت ذاته ، في مجمل العلاقة أو العلاقات غير المتكافئة التي أصبحت تحكم، ومنذ زمن ، الشرق الضعيف و التابع بالغرب الأوربي القوي و المتبوع.

وإذا كان البعض من المثقفين العرب والمسلمين قد حاول تفسير مثل تلك العلاقة أو العلاقات الاستعلائية والتمركزية باستحالة مقاومة المستشرق لضغوط أمـــته تارة[20]،"و بصعوبة انفصال أي خطاب عن مبادئه " تارة أخرى[21]، فإن ذلك لا يغير كثيرا من حقيقة تلك العلاقة أو العلاقات.

وإذا كـــان أولئك المثقفين قد دعوا بالتالي إلى " تجاوز الاستشراق من خلال القطـــيعة الإبستيمولوجية أو المعرفية ، مع الفكر الأوربي الغربي"[22]، ومن خلال تحريـــر الـــتاريخ والفكـــر العربي الإسلامي من " صندوق الشرور الأسطوري الاستشـــراقي[23].. ومـــن سبخته المالحة ، الرجراجة والموبوءة.. وذلك باجتثاث جـــذوره[24]، فإن مثل هذه المطالب تظل مستحيلة في غياب فكر عربي إسلامي قـــادر على الإنابة عن الاستشراق[25].. وعن القيام بمهمته في مختلف الحقول التي

امـــتد إلـــيها ، بل وعن تجاوزه من خلال طرح مشروع تجديدي كامل وشامل للـــــذات العربية والإسلامية ولفكرها وتراثها كشرط لتجديد مختلف مناحي حياتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية .

وفي انتظار مثل تلك الإنابة العربية و الإسلامية عن الاستشراق ، فإن هذه الخطابـــات الغربية العدائية له لن تكون سوى مطية لكل المزايدين على مسار ومصير هذه الأمة ..

إن هـــده الحقـــائق وغيرها حول الاستشراق ، هي التي يبدو أن البعض من المثقفين العرب و المسلمين قد بدأوا يدركونها .. أخيرا ، ويشرعون بالتالي في العمل وفقتها

2- حسن حنفي أو حلم الاستغراب

في محاولـــة مـــنه لـــلخروج بالمثقف العري و الإسلامي من مثل هده الدائرة الســـجالية المغلقة حول الاستشراق يأتي مشروع الدكتور حسن حنفي الداعي إلى تجـــاوز تلك الدائرة (المكررة لذاتها منذ قرون) ، وذلك من خلال طرحه لمشروعه الاســـتغرابي الهـــادف إلى تحويل الغرب الأوربي بدوره إلى موضوع للدراسة من طرف المثقفين العرب والمسلمين .

إن توقفـــنا عند هدا المشروع الذي تضمنه كتاب الموسوم ب : (مقدمة في علم الاستغراب)[26] أملاه تقديرنا و إعجابنا بهذا المفكر العربي الذي كرس حياته ، الـــتي تجـــاوزت الآن الستين سنة[27] لتجديد فكر ووعي أمته العربية و الإسلامية كشـــرط أولي و ضـــروري لتجديد مختلف مناحي حياتها الدينية منها والدنيوية ، السياسية منها و الاقتصادية .

كمـــا أن توقفـــنا بالنقد لمؤلفه ، بل لمشروعه التجديدي هذا و للقضايا التي يطرحها وللحلول التي يقترحها لها ..لا يجب أن يعني بالتالي أننا نقلل من قيمة هذا المشـــروع أو مـــن جهود صاحبه ، بل أنه يعني فقط محاولة للفت نظر صاحبه إلى بعض النقاط التي بدت لنا أنها تهدد عملية تجسيده .

1 _ المشروع الاستغرابي الحنفي :

يـــرى حســـن حنفي أن التراث الغربي الأوربي يمثل (الآخر) إزاء (الأنا) العـــربي الإسلامي الذي لا يزال يعيش على تقليد ذلك الآخر باعتباره مصدر علمه وموضوعه[27].

لذلـــك يطالـــب حسن حنفي بضرورة قلب هذا الوضع وذلك من خلال إبداع (الأنا) بدلا من تقليد الآخر .. وصولا إلى تحويله إلى موضوع للعلم بعد أن كان مصدره[28].

(ولأن الاستغراب هو بالتالي الوجه الآخر للاستشراق ، فإن العلاقة فيه بين (الأنا) و (الآخر) إنما هي علاقة تضاد بالتالي و ليست علاقة تماثل)[29].

(فالأنـــا العربي الإسلامي له بناء شعوري مختلف عن البناء الشعوري (للآخر)[30]، وحضارة الغرب نشأت بالطرد المستمر من المركز ، وهي بدون ماهية مسبقة(31). لذلك يطغى عليها ، (خاصة علومها الاجتماعية والإنسانية)، المنهج الماركسي.

(أمـــا الحضـــارة الإسلامية فهي على العكس من ذلك تماما ، إنها حضارة مركـــزية ، ماهويـــة . ولأنهـــا كذلك فإن وعيها ليس تاريخيا ،بل علمويا ،أي أن تاريخهـــا تـــاريخ وعـــي مـــن خـــلال علومها الدينية بالذات ، متمثلة أساسا في الفقـــه..الأصول والكلام .. (و إلى حد ما في التصوف) ، (وهي العلوم التي يجب إعـــادة بـــنائها انطلاقا من الوحي ، لتحقيق مثل ذلك التجديد)[32]، وليس من

العلـــوم الاجتماعـــية أو الإنسانية الأوربية الغربية[33] لقد حولت الحضارة الأوربية الغربـــية ، نتـــيجة لطبيعـــتها الاستعلائية والعنصرية[34] ولتكوينها ، ثقافتنا العربية والإســـلامية ، وغيرهـــا مـــن الـــثقافات غيرَ الأوربية الأخرى ، إلى وكالات لها ولإيديولوجياتها الاشتراكية والماركسية والليبرالية والوجودية و البنيوية)..الخ[35].

غـــير (أن الحضارة الأوربية الغربية ليست ، وكما يزعم أصحابها ، الحضارة الإنســـانية الأولى أو الوحيدة. فالحضارة بدأت قبل ذلك ، من الشرق و ستعود إليه مرة أخرى)[36] .

والحضـــارة الأوربـــية حضارة مفرقة ، عكس ما يدعيه البعض من أبنائها ، لذلـــك فـــإن تاريخهـــا و التأريخ لها يختلف عن تاريخ وعن تأريخ الحضارة العربية الإسلامية)[37].

ذلك أن تاريخ (الأنا) الإسلامي يتمثل ، فيما يرى حسن حنفي ، في ثلاثة مـــراحل لكـــل منها سبعمائة سنة .. وقد انتهت مرحلة الازدهار الأولى للحضارة الإســـلامية ، كمـــا انتهت مرحلة انحطاطها الثانية ، أو أوشكت ، وبدأت مرحلة ازدهارهـــا من جديد[38] المعلن عن افتكاكها للمشعل من الحضارة الغربية الأوربية التي تمثل الفلسفة الظاهرية نهايتها و نهاية العقل الأوربي الغربي الذي كونها[39].

هكذا سيتحقق أفول الحضارة الأوربية وصعود الحضارة الإسلامية وعالميتها.. من جديد ، وذلك من خلال إعادة إبداع (الأنا) انطلاقا من الوحي لا من العقل .. ومن تلك العلوم التي تولدت عنه (الفقه ، الأصول ، الكلام) و.. التصوف .

فالإسلام دين توحيد .. و الوحي يمثل المركز الثابت الذي نشأت حوله تلك العلوم و غيرها من العلوم الإسلامية التراثية الأخرى[40] .

و المهمة الأساسية و النهائية لهذه العلوم و للباحثين فيها تتمثل في تكوين أمة إسلامية ..(وعربية) ناهضة لا تستطيع أمة أخرى أن تحتل أرضها أو تعتدي على كرامتها كما يحدث الآن بالنسبة للأمة العربية والإسلامية[41] .

ويتم هذا الإنجاز الحضاري الجديد ، فيما يرى حسن حنفي ، لا من خلال الانتقال من جمال الدين الأفغاني إلى الخميني .. أو من خلال الانتقال من محمد عبده إلى جمال عبد الناصر ، بل من خلال الانتقال من كانط (E . kant) وهيغل (hegel) إلى فيخته (fichte) فيلسوف المقاومة ،و من شيلر (schiller) إلى دوستوفسكي (dostoievsky)[42].

ذلك باختصار شديد ، هو المشروع الحنفي الاستغرابي ، وهو المشروع الذي أثار لدى المثقفين العرب الكثير من الأسئلة و من التساؤلات[43]. لذلك فإننا سنكتفي هنا بالتوقف عند اثنين منها فقط ، وهما المتعلقين: أولا بمفهومه للاستغراب ، و ثانيا بالمنهج الذي طرحه لتجسيده .

1 - عن المفهوم الحنفي للاستغراب :

إننا لن نكرر هنا كل النقد الذي تعرض له مفهوم حسن هذا للاستغراب.. فقد كفانا عناء مثل هذه المهمة باحثون عرب[44]، ولكننا سنعرض فقط لثلاثة نقاط أساسية آثارها ذلك المفهوم من بين ما آثار..

أ- حين يطلق حسن حنفي على مشروعه هذا كلمة "علم" (مقدمة في علم الاستغراب) ،فإنه يقع في خلط بين مفهوم العلم بالنسبة للعلوم التجريبية وبين مفهومه بالنسبة للعلوم الاجتماعية و الإنسانية عامة..

فالاستغراب ، مثل الاستشراق ،ليس علما ، ولا يمكن أن يوصف بمثل تلك الصفة ، لأن الباحث والمبحوث فيه واحد : و هو الإنسان ، و هذا عكس

تلـــك العلوم التجريبية الأخرى ، حيث الباحث (الإنسان) شيء ، و موضوع بحثه شيء آخر .

ب - و حين يصف حسن حنفي مشروعه هذا ب (الجديد) أو (بالمحاولة الأولى في هذا الميدان) فإنه ينسى أو يتناسى محاولات مماثلة قام بها مفكرون عرب ومسلمون، و هـــذا ابتداء من ابن فضلان[45] و انتهاء بالدكتور محمد زحبان ، (و مرورا بكل مـــن الـــبيروني وابن خلدون ، الطهطاوي وخير الدين التونسي ، وغيرهم)، الذي طرح نفس المشروع الاستغرابي ، تقريبا ، على المؤتمر الإسلامي في "لاهـــور" سنة 1957.

ج - و أخـــــيرا ، ولـــيس آخرا ، فإننا نود أن نذكر حسن حنفي أن الغرب قد درسنا من موقع قوة ، و نحن اليوم في موقع ضعف ، كما أن الغرب قد درسنا بعد أن تـــبلور مفهوم الذات و الهوية والحرية عنده .. و هو ما لم يتحقق بعد بالنسبة إليـــنا ، نحـــن الذيـــن لازلنا نبحث عن ذاتنا و عن هويتنا وسط أتون العشائـــرية والجهوية .. ووسط أغلال التبعية و التخلف و الفقر و الجهل و الاستبداد السياسي ... الوطني.

ولأن ذلـــك هو حالنا فإن مشروع حسن حنفي الاستغرابي هذا ، المعتمد في تســـ سياته و مفاهـــيمه وطروحاته ومنهجيته على نفس الغرب الأوربي الذي يريد تحويلـــه إلى موضوع لدراسته ،لا يفعل بالتالي سوى تقديم "استشراق معكوس"[46] يبقى فيه الغرب مصدر الاستشراق و مصدر الاستغراب فاعلا بالتالي في المرتين[47] في الذات العربية .

2-عن المنهجية الاستغرابية الحنفية :

و كما يأخذ حسن حنفي في مشروعه الاستغرابي هذا مصطلحاته ومفاهيمه عـــن الغـــرب الأوربي ، فإنه يأخذ كذلك منهجيته منه .. و ليس من ذلك التراث الإسلامي الذي يشكل لديه منطلق الاستغراب وأداته..وهدفه..

هكـــذا يتـــبنى حسن حنفي الظواهرية (la phénoménologie) (هوسرل ت 1938. ED Hussel)، كمـــنهج لعـــلم الاســـتغراب ، رافضـــا بذلك أي قطيعة ابستيمولوجية مع الفكر الغربي و ذلك بحجة "أن تراث الآخر" نابع من تراث " الأنا " مـــن جهة ، و بأن الظواهرية تيار استشراقي روحي يعتمد أساسا ، مثل التراث الإســـلامي ، عـــلى الوعي لا على العقل .. وبأن كل ما جاء بعدها إنما هو مجرد تطبيقات لها "من جهة أخرى...

وإذا كنا نقر أن الظواهرية قد أثرت في تطور الفكر الأوربي المعاصر ، فإنها لم تكن مع ذلك الفلسفة الوحيدة التي فعلت ذلك . فالبرغسونية (le bergsonnisme مثلا ،كان لها نفس التأثير تقريبا على ذات الفكر الأوربي الغربي.

لكل ذلك و لغيره نقول :

1 - إن اعتـــبار حسن حنفي للوعي كأساس وحيد للظواهرية يدحضه (هوسرل ذاتـــه ، الذي يؤكد (أن فلسفته ، أو منهجه الفلسفي هذا ، إنما جاء كرد فعل على أزمـــة الوجود الأوربي) ، (وهي الأزمة التي لا يمكن أن تعرف ، وكما يضيف ، ســـوى نهايتين : إما أفول أوربا والاغتراب نتيجة لتصورها الضيق للعلم .. وهو التصـــور الـــذي يلغـــي ، و باسم الموضوعية ، من مجاله الإنسان ، أو إعادة إحياء

أوربـــا.. عـــن طريق إعادة إحياء الفلسفة بواسطة بطولة العقل المتجاوز لكل نزعة علمية طبيعية)[48].

فهـــل وصل العرب و المسلمون إلى نفس التطور العلمي الأوربي الغربي حتى يلجأوا بدورهم إلى الظواهرية؟ وهل يمكن أن يكون العلم ، بمفهومه الأصولي عند حســـن حـــنفي ، وأيا كان تطوره ، هو المقابل ، وكما يذهب، لمفهوم ذلك العلم الأوربي ؟ [49].

2 _كذلك فإن حسن حنفي حينما يتخذ (الوعي الظواهري الذي لا يحقق نزعته المتعالـــية .(transcendentale)، أو المفارقـــة ، إلا مـــن خـــلال اختصـــاره للواقع (la reduction) و لمكوناته ، ووضعه للعالم الواقعي بين قوسين كأساس للتعامل مع الـــتراث العـــربي الإسلامي ، الذي يشكل ، في نظره ، مادة و أداة الاستغراب) ، ينســـى ،أو يتناســـى ، أن مـــثل هذا الوعي الظواهري يناقض ، بالرغم من طابعه القصـــدي (intentionnalité روح الإســـلام الـــذي يعطي الأولوية للواقع ، وليس للخيال، وللباطن و ليس للظاهر ، وللجماعة وليس للفرد ..

لذلك فإن حسن حنفي حينما يتخذ الظواهرية كمنهج له لدراسة الإسلام ولإعادة تجديد تراثه فانه يناقض كلا من الإسلام ومن الظواهرية على حد سواء .

3 - ثم كـــيف يسمح حسن حنفي لنفسه بتوظيف الوعي الظواهري الأوربي في عـــلمه الا ســـتغرابي هـــذا وهـــو الذي يؤكد أن بناءه أو مكوناته مختلفة عن بناء ومكونات الإنسان الإسلامي ؟

و أخـــيرا ، و ليس آخرا ، كيف يتصور حسن حنفي تحقيق مثل تلك الثورة الـــتجديدية الإسلامية من طرف الإنسان العربي و الإسلامي وهو الذي يؤكد أنه "لا تاريخ له لأنه منغلق في حاضر لا زمان له ولا ماضي و لا مستقبل له كذلك ؟

وذلك نظرا لانعدام استقلال العقل (و ليس الوعي الذي يتحدث عنه في مشروعه هـــذا)، والذي أدى إلى إسقاط التاريخ من وعيه (أي الإنسان العربي الإسلامي) وإلى تحويل دوره فيه (أي في التاريخ) إلى مجرد دور العابر له "(50)

إن هذه الملاحظات على مشروع حسن حنفي الاستغرابي لا تهدف ، بالرغم مـــن طابعـــه الخيالي الذي يجعله لا يختلف في الوسائل و المضمون و الأهداف عن العديـــد من المشاريع التجديدية المنطلقة من الماضي وليس من الحاضر ، و تحديداته (و في مقدمـــتها المشـــاريع الإســـلامية).. إلى التقلـــيل من جهود صاحبه أو إلى التشـــكيك في صـــدق انشغاله بـــهموم أمته العربية و الإسلامية ، بل أن هدفها الإســـهام في إنجاحه .. من خلال لفت نظر صاحبه إلى بعض العقبات والتناقضات الـــتي تجعل كل أمل لتجسيده بشكل الحالي هذا ...حلما لا يزيد ، مثلما تفعل اليوم العديد من المشاريع المـــاضوية ، تلك الهموم إلا تفشيا و عمقا .

المراجـع

1 ــ إبراهيم محمد محمود : (كيف ينظر المثقف العربي إلى الاستشراق ؟) ، مجلة المستقبل العربي ، العدد 7 ، 1990.. وقد استفدنا من هذا البحث كثيرا ، خاصة في الجزء الأول منه .

2 ــ د/ عبد الله إبراهيم : المركزية الأوربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، 1997.

3 ــ إبراهيم محمد محمود : كيف ينظر المثقف العربي ..؟

3 ــ نفس المرجع .

4 ــ محمد البهي: (المبشرون و المستشرقون و موقفهم من الإسلام) ، مجلة الفكر العربي ، افريل1982 .

5 ــ إدوارد السعيد : الاستشراق : المعرفة ، السلطة ، الإنشاء ، ترجمة عربية لكمال أبو ديب ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ، الطبعة الثالثة ، 1981 ، ص38 .

6 ــ صادق جلال العظم : الاستشراق و الاستشراق معكوسا ، دار الحداثة ،بيروت ، 1981 ، ص 9ــ10.

7 ــ محمد العقيقي : المستشرقون ، دار المعارف ، القاهرة ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، 1980 ، ص7 ، ص158 إلى467 .

8 ــ نفس المرجع السابق .

9 ــ نفس المرجع السابق .

10 ــ أنور الجندي : الفكر العربي المعاصر ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، (ب . ت) ،ص. 274

11 ـ د / علي سامي النشار : (الحركة الصليبية و أثرها على الاستشراق الغربي) ، الفكر العربي ، العدد 5 ، يناير 1983 ، ص 129 .

12 ـ د /طيب تيزيني : من التراث إلى الثورة ، دار دمشق ، 1978 ، الجزء الأول ،ص. 573 .

13 – محمد البهي : المبشرون و المستشرقون ..

14 – هشام جعيط : أوربا و الإسلام ، الترجمة العربية ، دار الحقيقة ، بيروت ، 1980 ، ص. 11 .

15 – إدوارد سعيد : الاستشراق : مرجع سابق ، ص.28 –30 .

16 – المرجع السابق .. و انظر أيضا كتابه الثاني : تغطية الإسلام ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، لبنان ، 1983 .و كتابه المترجم إلى الفرنسية عن الإنجليزية'

CULTURE ET IMPERIALISME , LIB. FAYARD . LE MONDE DIPLOMATIQUE , PARIS , 2001 .

17 – المرجع السابق .

18 – سهيل فرح : " الاستشراق الروسي : نشأته و مراحله التاريخية " ، مجلة الفكر العربي ، 1983 ، العدد 5 .

19 – محمد وقيدي : " تطور الصياغة الإيديولوجية في الاستشراق " ، مجلة دراسات عربية ، 1982 ، العدد 7 .

20 – إدوارد سعيد : مرجع سابق . ص.273 .

21 – جمال الدين بن الشيخ : " الاستشراق " ، مجلة الفكر العربي ، 1980 ، العدد 5

22 – إدوارد سعيد : مرجع سابق .

23 – برهان غليون : " تحرير التاريخ " ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، 1985 ، العدد 37 .

24 – إدوارد سعيد : مرجع سابق ، ص. 267 .

25 – جاك بيرك : : (J .BERQUE) : " حوار مع جاك بيرك " ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، 1988 ، العددان 5 –266 –

د. حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب ، الدار الفنية ، القاهرة ، 1991 ، الطبعة الأولى .

27 – المرجع السابق ، ص.5 .

28 – المرجع السابق ، ص.16 .

29 – المرجع السابق ، ص.16 .

30 – المرجع السابق ، ص.16-110 .

31 – المرجع السابق ، ص.110 .

32 – المرجع السابق ، ص.102 .

33 – المرجع السابق ، ص.24-32-102 .

34 – المرجع السابق ، ص.35-102 .

35 – المرجع السابق ، ص.35-102 .

36 – المرجع السابق ، ص.35-102 .

37 – المرجع السابق ، ص. 518 .

38 – المرجع السابق ، ص. 518 .

39 – المرجع السابق ، ص. 518 .

40 – المرجع السابق ، ص.5 – 11 .

41 – المرجع السابق ، ص.5 – 11 .

42 – المرجع السابق ، ص.5 – 11 .

43 – د. أحمد عطية : جدل الأنا و الآخر (صدار عن عدد من المفكرين العرب بمناسبة بلوغ د. حسن حنفي سن الستين) ، مكتبة مدبولي ، 1997، القاهرة .

45 – أحمد ابن فضلان : رسالة في الروس ، نشرها مترجمة إلى الألمانية ، " فراهن " 1823 ، ثم نشرها وزارة الثقافة السورية ، 1977 .

46 – د. أحمد عطية : جدل الأنا و الآخر (محمود أمين العالم) ، ص.161 .

47 – المرجع السابق : (د. يوسف زيدان) ، ص.147 .

48 – ed. HUSSERL : la crise de l'humanité européenne et la philosophie , traduction francaise . p.RICOEUR . paris . aubier . 1987 .

49 – حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب ، ص.173 – 182 .

50 – حسن حنفي : دراسات إسلامية (ماذا عانت مبحث الإنسان و التاريخ في تراثنا القديم ؟) ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، 1981 ، ص. 393 – 456 .